

المجلد: 05 / العدد: 02 / (2021)، ص 161/177

الرحلة: بين الأدبية و الإثنوغرافية، مقارنة في نصوص رحلية.

Travel Literature: Between literary and ethnographic, an approach in .nomadic texts

أحمد صانع

sa170685@gmail.com

المدرسة العليا للأساتذة -بوزريعة

(الجزائر)

تاريخ النشر: 2021/12/02

تاريخ القبول: 2021/07/20

تاريخ الاستلام: 2021/02/16

ملخص:

تمثل الرحلة كرافد من روافد الأدب العربي أكثر النماذج الممثلة لذلك، إذ تملك في ثناياها تعانق عناصر التشويق و الحكى مع العجائبية والميل إلى الغرابة، بيد أنها كتابة أدبية تحمل اكتشافا لجوهر الأنا و خصائص الآخر، و لطبائع الناس في الزمان و المكان بكل ما يحمله من اختلافات، هذا الشكل الأدبي الذي يسعى صاحبه فيه إلى البحث الدائم عن الجديد المتميز الغريب، ويفكر في الوصول إلى عوالم و ثقافات لم تتحقق لجميع البشر، مما جعل الرحلة موضوعا للدراسة و البحث من مختلف جوانبها، و تم استثمارها من قبل علوم كثيرة تداخلت في دراستها ورصد خصائصها

الكلمات المفتاحية: الرحلة ؛ الأدبية ؛ الإثنوغرافيا ؛ البنيوية

Abstract:

The journey as a tributary of Arabic literature represents the most representative example of this, as it has in its folds embracing the elements of suspense and narration with miraculousness and a tendency to strangeness, yet it is literary writing that carries an exploration of the essence of the ego and the characteristics of the other, and the nature of people in time and space with all that it carries Differences, this literary form in which its owner strives to constantly search for the new, distinct and strange, and thinks about reaching worlds and cultures that have not been realized for all human beings, which made the trip a subject of study and research in its various aspects, and it has been invested by many sciences that have overlapped in its study And monitor their properties

keywords; Structuralism ; Literary ; Ethnography ; the journey

مقدمة :

شهدت الساحة الأدبية في العالم عامة حراكا كبيرا في العصر الحديث، و نشاطا واسعا من حيث مجالات التخصص في الدراسات المتعلقة بالأدب كظاهرة إنسانية عالمية تكسر كل حدود المكان والزمان،

وترفض بشدة الانقياد لاتجاه واحد يقيد من عملية الإبداع و الكتابة و حرية الفكر، خاصة ما تعلق بالبحث في التراث الأدبي الفني الذي يتم استثماره لبناء مستقبل الأمم. و تمثل الرحلة كرافد من روافد الأدب العربي أكثر النماذج الممثلة لذلك، إذ تملك في ثناياها تعانق عناصر التشويق و الحكيم مع العجائية والميل إلى الغرابة، بيد أنها كتابة أدبية تحمل اكتشافا لجوهر الأنا و خصائص الآخر، و لطبائع الناس في الزمان و المكان بكل ما يحمله من اختلافات، هذا الشكل الأدبي الذي يسعى صاحبه فيه إلى البحث الدائم عن الجديد المتميز الغريب، ويفكر في الوصول إلى عوالم و ثقافات لم تتحقق لجميع البشر، مما جعل الرحلة موضوعا للدراسة و البحث من مختلف جوانبها، و تم استثمارها من قبل علوم كثيرة تداخلت في دراستها ورصد خصائصها، فكان على باحثي الأدب أيضا أن يدلوا بدلوهم في الكتابة الرحلية و يشتغلوا على نصوصها رغم أن أصحاب الرحلات ليسوا من أرباب الكتابة و لم يكونوا أدباء قبل عهد ترحالهم، لكن مادتهم التي أنتجوها حظيت بشهرة واسعة مثلما حظي كتابها بشهرة أكبر، ثم إنهما أخذتا بعدا شعبيا واسعا مما جعلها تستحق أن تكون مجالا خصبا للتحليل الأدبي.

على ذلك نحاول في هذا العمل أن نقدم فكرة عن أدب الرحلة وبعض ملامحه المميزة له على اعتبار أنه جنس أدبي ينتمي إلى حقل الكتابة الأدبية، إذ إن الأدب في مفهومه الحديث لا يقتصر على أشكال الشعر والنثر فقط، بل تجاوز هذه النظرة إلى مجمل الأشكال المكتوبة و القولية التي تهتم بقضايا الإنسان و مايعيشه في حياته بكل مستجداتها، فصار يشمل "أصول فن الكتابة، و يعني بالآثار الخطية و النثرية و الشعرية، و هو المعبر عن حالة المجتمع البشري، و المبين بدقة و أمانة عن العواطف التي تعتمل في نفوس شعب أو جيل من الناس أو أهل حضارة من الحضارات." ¹ ثم الوقوف عند أدبية الرحلة من جهة و على الجانب الإثنوغرافي و بخاصة حضور عنصر الطعام في الكتابة الرحلة من جهة أخرى، و ذلك باستقراء بعض النصوص الرحلية العربية لغويا بنويا وجماليًا على المستوى الأدبي والثقافي، من باب إثراء الكتابة في هذا الحقل من الكتابة التي تغري على البحث في مكانها.

الرحلة، أدب معرفة الإنسان:

إن الرحلة ليست كغيرها من فنون الأدب إذا ما نظرنا إليها من منظور طابعها الخاص في علاقتها بالواقع الذي تتجلى مظاهره المختلفة فيها، فالرحلة يتناول نقل حدث الرحلة كفعل منسوب إلى ما يقوم به فيرصد الرحلة في حد ذاتها و ما يلتقطه من مشاهد و وقائع و أحداث و أخبار غنية متنوعة، بحيث يكون الرحالة جزء منها بحضوره الشخصي فيها أو شاهد عيان على وقوعها أو متلق لها من قبل أفواه من شهدوها عن طريق الخبر والرواية، و لو أنّ أغلب الرحالة يفضلون و يستأنسون بما يرونها بأعينهم لما يكون فيه من قوة الصدق و قيمة الوصف التي يقوم عليها من شاهدها بعينه، وفي ذلك يقول أبو الريحان البيروني: "إنما صدق القائل ليس الخبر كالعيان لأن العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده و في مكان حصوله." ^{2 3}

ونجد للرحلة قيمة إنسانية تجعل من وحدة الإنسان أمرا واقعا محتوما، و يرتسم هذا الواقع عن طريق الرحلة التي تفتح طريقا واسعا للتعرف و الاختلاط بين بني البشر مهما تعددت أجناسهم، فقد "رسخت كل العوامل والمفاهيم التي بنيت عليها مسألة وحدة البشر على الأرض بل قد فجّرت في الإنسان استشعار

المصالح المشتركة التي وثقت عرى هذه الوحدة على الأرض، ومن غير الرحلة ينفرط عقد هذه الوحدة و تتضرر حركة الحياة ومصيرها المشترك.⁴ هي جزء مهم جدا من حركة الحياة على الأرض و تتبّع مسار الإنسان و وجوده قد لا تتجاوز مسافة قصيرة في بعض الأحيان وقد تمتد وتطول حتى تغطي أطول المسافات بين مكان ومكان آخر.⁵

يضاف إلى ذلك أهمية الرحلة في رصد وجود الإنسان ثقافيا كشكل معرفي يعرّف الرحالة ومن يطّلع على هذا النوع من الكتابة على مختلف المشارب و المنابع المرتبطة بحياة الإنسان، فمادامت الرحلة "مخالطة للناس والأقوام، هنا تبرز قيمة الرحلات كمصدر لوصف الثقافات الإنسانية و لرصد جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة"⁶، ثم إنها تمنح صاحبها وعيا بذاته و معرفة للآخر وخصوصياته، "فالرحلة يتعرض بعيدا عن موطنه لشتى أصناف التجارب و المغامرات، ويبني من خلالها معرفة بغيره و تميّز لذاته"⁷، دون إغفال لقيمتها المعرفية كمصدر هام يسهّل لطلاب العلم مهمتهم السامية في البحث عن فنون المعرفة المختلفة، "فالرحلة لا بد منها في طلب العلم، ولاكتساب الفوائد و الكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرحال"⁸، يضاف إلى ذلك غايات متنوعة للقيام بالرحلة من قيام بفريضة الحج و تجارة ومهمات رسمية، فالرحلة من القرن السادس الهجري عند العرب انطلقت على أوسع مدى، و تجاوزت ديار المسلمين على أمل أن تحقق أهدافا متنوعة اقتصادية و هي تعمل لحساب التجارة، و دينية و هي تعمل لحساب فريضة الحج، و إدارية و هي تعمل لحساب العلاقات بين الدول الإسلامية و مجتمع الدول الخارجي، و علمية و هي تعمل لحساب العلم وطلب المعرفة.⁹

و تأخذ الرحلة حيّزا مهما في الأدب إذا ما رمنا في ذلك تجنيس هذا النصّ كمقولة أدبية، وتتعدد المفاهيم التعريفية لأدب الرحلة أو "النصّ الرحلي" باعتباره فنا من فنون الكتابة النثرية، لكنها في النهاية تجتمع لتحديد قالبها واحدا لمفهوم هذا اللون من التعبير، جاء في معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب أن "أدب الرحلة هو مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، و قد يتعرض فيها ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، و لتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد"¹⁰، في ذلك يكون الرحالة الكاتب قائما بفعل الكتابة الأدبية "يسجل مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة و الصدق و جمال الأسلوب"¹¹ هذا الشكل التعبيري يأخذ طابع المؤلفات التي ترصد وقائع يعيشها الرحالة في خضم بحثه و اكتشافه للذات و للآخر، هو نصّ "يبرز في نصوصه المتوارثة إسهام الشعوب كبيرة وصغيرة، قديمة ومعاصرة في بناء الحضارة متوخيا المواجهة بين المضمون و الشكل ليحوّل منها وحدة مثنوية"¹²، و يتسم بطابع وصفي لما يراه، فهو نثر "يصف رحلة -ورحلات- واقعية قام بها رجال متميّز، موازنا بين الذات و الموضوع، من خلال مضمون و شكل مرين، بهدف التواصل مع القارئ و التأثير فيه"¹³، فتأخذ بذلك طابعا خاصا يجعل منها "نصا سرديا يتراوح بين قطبي الواقعي والخيالي، بأسلوب يسجل و يصف رحلة انتقال السارد المؤلف من فضاء لآخر داخلي أو خارجي على المستوى الفعلي"¹⁴، فرحلة السرد هاته توفّر مادة أدبية و لغوية للباحث الأدبي حين كشفه عن بني الرحلة و ماتحملة من جماليات و آفاق إنسانية و

معرفية، فأدب الرحلة يتكون من " أنساق جمالية وإنسانية جديدة"¹⁵، يضاف لها تشكيل في بنية الذات و علاقته بالآخر، " تشكيل لنص ذاتي/شخصي، بخصوص الأنا و الآخر، يتبنين متكيفا في شكل معين للتعبير عن رؤية معينة، انطلاقا من خطاب مفصح عنه في البداية، أو مضمّر في تضاعيف السرد و الوصف و التعليقات"¹⁶ الأمر الذي يجعل من الرحالة ككاتب قصصي يتقمص شخصية السارد جامعا بين تقديم ما يراه وبين أساليب الأدباء ولو أن جنس الرحلة كأدب يختلف في خصوصياته عن أجناس أخرى، فأدب الرحلة في نظر سعيد بن سعيد العلوي، جنس أدبي له من الصفات و الخصائص ما يكفي لتمييزه عن الأجناس الأدبية كونه خطاب مخصوص له منطقه الذاتي و بناؤه و مكوناته و عناصره، يجمع بين الإفادة عندما يخرنا عما يراه، و الإمتاع لما يرصد لنا ما هو عجيب، الأمر الذي يجعل الرحالة يتقمص شخصية السارد و القاص.¹⁷

إن الرحلة كحدث أدبي له مستويات جمالية و نفسية و اجتماعية ثقافية عدّة، يحتمل مداخل متنوعة من أجل دراسته و تحليله و البحث في مختلف القضايا التي يحملها أدب الرحلة، وفي ذلك يقول روبر إسكارييت: "إن كلّ حدث أدبي يفترض وجود مؤلفين و كتب وقراء، أو بقول أعمّ يقتضي وجود مبدعين و آثار و جمهور، وهو يكون ميدان تبادل يرتبط بوسيلة معقدة جدا من الفن و التكنولوجيا و التجارة، وفي مناحي هذا الميدان جميعا يطرح وجود أفراد مبدعين مشاكل في التأويل النفسي و الأخلاقي و الفلسفي، كما تطرح الآثار نفسها مشاكل جمالية وأسلوبية و لغوية و تقنية، أما وجود الجماعة فيطرح مشاكل ذات طابع تاريخي و سياسي و اجتماعي بل اقتصادي أيضا، و بقول آخر هناك على الأقل ثلاثة آلاف طريقة لارتداد الحدث الأدبي"¹⁸، و لعل كل الذي ذكر هاهنا يرتسم جليا في الخطاب الأدبي الرحلي.

الإثنوغرافيا و اكتشاف الهوية الثقافية:

إن البحث عن خصوصيات المجتمع الثقافية و مميزاته حياته و نمط معيشته القائمة على عادات و تقاليد تعود إلى زمن بعيد يقودنا إلى اكتشاف عالم غريب عجيب من القيم و المنظومات المتنوعة التي تحتاج إلى الوقوف عندها بالدرس، و ذلك من أجل الإفادة منها معرفة و اكتشافا، و لعل النص الرحلي استطاع أن يخوض هذه التجربة بكل نجاح حين كان الرحالة باحثا عن كلّ شيء، و متلقفا لكلّ شيء في مختلف المجتمعات التي مرّت بها رحلاته، وما تعلق بوصف طبائع البلدان و خصال أهلها و أسلوب حياتها، و لو أنّ حديثه عن ذلك لم يكن مؤسسا على علم ثابت بأصوله و قواعده، لكنه في ذات الوقت أسّس لمنهج بحثي يعتمد على تقديم أساليب الحياة و نمط المعيشة التي تحكمها مجموعة من العادات و التقاليد، هذا المنهج هو ذاته ما عرف حديثا بالإثنوغرافيا كعلم تطور و أخذ خصوصياته من علم الأنثروبولوجيا. و لعل الوقوف عند المنهج الإثنوغرافي راجع في الأساس إلى أن كثيرا من رحلات العرب تزخر بشكل كبير بالمحتوى الإثنوغرافي الذي يمثل متطلبا رئيسا للدراسة و البحث في هذا المجال.

لقد تمّ استخدام مصطلح الإثنوغرافيا في الدراسات الأنثروبولوجية بوصفه طريقة للتعرف على الثقافات الأخرى، وعلى وجه الخصوص الثقافات البدائية، و بالتالي استمدت الإثنوغرافيا قواعد تنظيمها و أسسها منه¹⁹، و المقصود بالثقافات البدائية تلك التي تملك موروثا منظما من مختلف العناصر الثقافية التي تستوجب البحث و الدراسة. جاء مصطلح الإثنوغرافيا في موسوعة ويكيبيديا أنه علم يسعى إلى "

اعتماد منهج البحث الوصفي أو منهج المسح معتمدا على الملاحظة المباشرة و المشاركة أحيانا، و موجهها عنايته للثقافات الإنسانية و الظواهر الاجتماعية بالوصف الدقيق.²⁰ فالإثنوغرافيا هي "الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة و مجموعة التقاليد و العادات و القيم والأدوات و الفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة"²¹، إنَّ هذا التعريف يفترس بصدق ترجمة مصطلح **Ethnography**، المكون من مقطعين: الأول **Ethno** وتعني جنس أو شعب، و الثاني **graphy** وتعني الوصف، و بجمع المعنيين نحصل على معنى أنها وصف حياة الشعب.

ويرى باتون **Patton** أن البحث الإثنوغرافي يعني بالثقافة بشكل خاص، فسؤاله الدائم هو: ما ثقافة هؤلاء الناس؟ وهل يفترض أنَّ أي مجموعة من الناس تعيش مع بعضها لفترة زمنية معينة ستكون ثقافة معينة خاصة بها؟ و ما انعكاسات هذه الثقافة على تشكيل سلوكهم و ممارساتهم الحياتية و نظرهم إلى الواقع الاجتماعي والثقافي الذي يعيشون فيه؟²² إنَّها أسئلة تشكّل ملامح المستوى الثقافي لمجتمع ما، و تحدّد خصوصياته القائمة على نسق معين في زمان و مكان معينين. فالإثنوغرافيا بذلك علم يقوم على وصف الموجودات " و المحسوس لواقع الحياة اليومية لمجتمع ما خلال فترة زمنية معينة، متضمنا ذلك مجموعة القيم و التقاليد و العادات و الآداب و الفنون وكل ما يندرج تحت ذلك الكل المركب الذي اصطلح على الإشارة إليه بكلمة ثقافة".²³

إن هذا التقديم لمفهوم الإثنوغرافية لا يخرج عن كونه وصفا للأديب الرحالة الذي يلعب دور الإثنوغرافي حين يقوم بتفقد البلدان و الأماكن، و يصف مختلف المشاهد و العادات التي استرعت انتباهه، ما يميّزه عن الإثنوغرافيا كعلم أنه يتركز على بنية اللغة و الأساليب الفنية التعبيرية في تقديم عرضه الرحلي، و يفترس في ذات الوقت لبعض الخصائص العلمية التي تتوافر لدى باحث الإثنوغرافيا ولو أن الجامع المشترك بينهما هو مختلف الخطوات التي يقوم بها، و التي تبدأ من الملاحظة القائمة على التعرف على صفات و خصائص ما يتمّ درسه أو التقديم له، ثم العملية القائمة على فهم الظواهر المتكررة و تحديد ما يختلف و يتفق في الصفات، ثم الوصف الدقيق الأمين لما يراه و تدقيق مختلف البيانات التي ستكون محفوظة مراعية أن تكون مطابقة للواقع الذي شمله الوصف، وصولا إلى آخر مرحلة أين يتم جمع المعلومات و ربطها بعضها بعض و تحقيق الانسجام و التآلف بينها خاصة أمام زخم كبير من المعرفة التي نالها الباحث الرحالة أو الإثنوغرافي في رحلة اكتشافه. و ما هو ملاحظ من مجمل ما وصلنا من مؤلفات في مجال الرحلة أنَّ جلَّ الرحالة القدامى جمعوا مادتهم و دونوها على أساس منهجي مشابه لما هو متعارف عليه في ميدان الإثنوغرافيا حديثا، فكثير من الرحالة - أمثال المسعودي و البغدادي و ابن بطوطة وأبي عبد الله ياقوت و الإدريسي - عملوا على إنتاج نصوص قائمة على مميزات وخصائص لا يجيد عنها كتاب الرحلة، فتشكّلت بذلك ملامح و خصوصيات مشتركة أشبه بالقواعد التي يجب أن يحتذي بها صاحب الرحلة والتي تقوم على:

-أهمية وقيمة الرحلة و التجوال في جمع المادة.

- المعالجة الشخصية عن طريق الملاحظة المباشرة و المعاينة.

- الاعتماد على مجموعة من الإخباريين الذين يطلعونهم على ما لم تستطع أعينهم رؤيته.
 - الصفات التي يجب أن يتحلّى بها الرحالة من صبر على مشقة السفر و الغربة، و تحقق من القول،
 وتجنّب الكذب والمغالاة، و التحقق مما يصله من أخبار لم يعاينها بنفسه.²⁴
 لذلك فدراسة أدب الرحلات و دخولها من باب الإثنوغرافيا يهدف إلى " الوصول إلى نظرة متكاملة
 إلى مناهج البحث في الأعمال و مدى إمكان الاستعانة بهذه المناهج والمبادئ في إقامة فكر عربي جديد
 يسترشد بجهود المفكرين السابقين مثلما يسترشد بالفكر العربي المعاصر." ²⁵ خدمة للفكر العربي توفيقا
 بين قديمه وجديده بالاستعانة على موروث العرب في كتب الرحلات، وتطبيق مختلف الآليات العلمية التي
 تسهّل من قراءته وفهمه.

على ذلك يبقى أدب الرحلات - باعتباره انتقال ضمن الفضاء الجغرافي والزمن التاريخي، وهي
 انتقال أيضا ضمن نظام اجتماعي وثقافي - حاملا لكثير من خصائص البشر التي تضم في كنفها مختلف
 عاداتهم و تقاليدهم في التفكير و الاعتقاد و اللباس و الطعام والشراب والعمران، و هذا - كما يقول
 حسين فهم - واقع ضمن الدراسات الإثنوغرافية التي تساعد على فهم مسار الحضارة الإنسانية، إذ إن
 التنوع الثقافي يساهم بلا جدال في التغيير والتطور الإنساني في مجمله.²⁶
الخطاب الرحلي أدبيا و إثنوغرافيا:

من أهم القضايا المطروحة في مجال الرحلة قضية تصنيفه إلى الأدب أو إلى كونه نصّا على وجه العموم
 بحيث يكون نصّا أدبيا أو غير أدبيّ بمفهومه الواسع، من منطلق ما يحمله هذا النصّ من توسّعات مفتوحة
 على التاريخ والجغرافيا و الاجتماع والعمران... إلخ، فالكشف عن التيمات المتعلقة بهذا الجنس من الكتابة
 يقودنا إلى الحديث عن تشكّله كوعاء يجمع بين محتوى الأدبية من جهة و محتوى الثقافة من جهة أخرى.
 ففي شقه الأدبيّ الذي يتطلب وجود مستوى " الأدبية " لما يطلق على الخصائص التي تميّز الأدب
 عن غيره، على قول جاكبسون بأن "الأدب في عمومته هو ما يمثل موضوع علم الأدب، إنّ موضوعه هو
 الأدبية أي ما يجعل من أثر ما أدبيّا"²⁷، لذلك فإننا نجد أن الرحالة العرب " غلب على كتاباتهم الطابع
 القصصي، يستندون به إلى الواقع أحيانا و يجنحون به إلى الخيال أحيانا أخرى، و يحفلون فيه بالقصص
 للمتعة التي تسمو به إلى مرتبة الأدب الفني الصرف في أغلب الأحيان." ²⁸، إن هذا الشكل من الكتابة
 يمنح للرحلة قيمة تنحو منحى الأدبية، يضاف لها ما تحفل به من " الأساطير والحرفات وبعض المحسنات
 البلاغية وجمال اللفظ وحسن التعبير وارتقاء الوصف، وبلوغه حدا كبيرا من الدقة، علاوة على ما يستعين به
 أحيانا من أسلوب قصصي سلس مشرق، و هذا هو الذي يجعل بعض الدارسين يدخلون أدبيات
 الرحلات ضمن فنون الأدب العربي"²⁹، مادامت تملك جلّ خصائص الأشكال الأدبية الأخرى، فهي
 أسلوب ترسمه تفاصيل السرد و القصّ والحوار و الوصف، مطعّمة بألوان البيان والبدیع التي تجيء في غالب
 الأمر عفويا تزيد من مشاهد الرحلة جمالا، ف"ترتفع بها إلى عالم الأدب، و ترقى بها إلى مستوى الخيال
 الفني"³⁰.

ولعل أكثر مادة تميّز الكتابة الرحلية هي مستوى القصّ و الحكّي الذي يعتمد عليه الروائي/الرحالة
 في بناء كتاباته، فهو المسافر المتلقي للروايات و الأخبار و الأقاصيص خيالية كانت أم واقعية، فيميل كتاب

الرحلة بذلك إلى عرض " القصص التي عاشوها أو سمعوا بها، وكان سردهم لهذه القصص بعفوية وحيوية قربت الرحلة من عالم القصة"³¹، هذا العالم - الحكي - يتطلب توافر العناصر الثلاث (الحاكي/ المحكي عنه/ الحكاية) وهي العناصر ذاتها التي تمثل بالتقابل (الرحالة/ السفر/ الخطاب الرحلي)، فالحاكي الرحالة هو نفسه المؤلف الذي يقوم بفعل الرحلة و فعل الكتابة، إذ يكشف في كتابته جوانب شخصيته و المؤثرات التي شكّلتها، ويعبّر بها عن رؤيته للعالم، فوصفه عبد الفتاح كيليطو بالمساح، " إن المساح ليس مسافرا بدون أحمال فهو يحمل أدوات لازمة لتنظيم عمله، والفضاء الذي يخترقه ليس مرثيا إلا عبر عيون شبكة ثقافية تحصره حصرا وثيقا"³²، فتبرز الأنا في الرحلة متميزة ظاهرة بكل أحاسيسها و معتقداتها و مقولاتها الفكرية و النفسية، شأنها في ذلك شأن أي أديب يعبّر عن قضية أو فكرة ما فيفضحه أسلوبه.

أما المحكي عنه فهو الإنجاز الذي قام به الحاكي الراوي و هو السفر الذي خصّص أدبية الرحلة باعتبار أن السفر - مهما تعددت أشكاله في الأدب العربي - يمثل ملمحا أدبيا مهما، وقد نجعل من أدب الرحلة شكلا ينتمي لما يسمى بـ " أدب السفر " مع اختلاف في أشكال الكتابة و السفر معا، ذلك أن هذا الإنجاز في الرحلة قادر على تنظيم مختلف المكونات الأخرى التي تؤلف الرحلة وليس معنى ذلك أن يكون العنصر الوحيد في الكتابة الرحلية، لذلك فإن عنصر السفر " يسمح بالتصنيف، وهو في الوقت ذاته يمكننا من تلمّس خصائص الكتابة، مادامت الرحلة نوعا أدبيا يقلص من دور المصادقة ويقدم لنا بقدر كبير قواعد إنتاج النصّ وقواعد تلقيه معا"³³.

وأما العنصر الثالث فهو الخطاب المحكي متمثلا في الحكاية ، فنورد ما قدّمه سعيد يقطين إذ يقول: "خطاب الرحلة يتماهى مع الرحلة و عوالمها، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية، فهو يبتدئ بتحديد أسباب الرحلة ودوافعها و زمن الخروج و مكانه، و كلما انتقل الرحالة في المكان و اكب الخطاب هذه التحولات، و صولا إلى النهاية (نهاية الرحلة)، والرجوع إلى نقطة الانطلاق، وبهذه المواكبة يكون خطاب الرحلة عملية تليفيظ لفعل الرحلة و بعملية التليفيظ هاته يختلف خطاب الرحلة عن غيره من الخطابات المجاورة التي تقوم على أساس فعل الرحلة، و لكنها تستثمر جوانب منها وتوظفها في خطاب مختلف"³⁴.

إن هذه العناصر الثلاث تشكل توليفة خاصة لأدب الرحلة و تميّزه عن غيره من أشكال الكتابة الأخرى، فتبنى هذه العناصر - مثلها مثل أي أسلوب في الكتابة - على نظام موزّع على مقدمة الرحلة ثم متن الرحلة ثم خاتمها، كنّاسيس لبنية الخطاب الرحلي باعتباره شكلا أدبيا، فالمقدمة " من العتبات النصية المهمة في توجيه القارئ فضلا عن العنوان ، إذ إنها تضمّ من التيمات التي تكشف عن مقصدية المبدع و نواياه الإيديولوجية التي تمثّل إشارات و موجّهات أساسية تقود القارئ إلى فهم أشمل و أدقّ في النصّ"³⁵، أما المتن فهو خطاب لا يفصل عن المقدمة، إذ ينمو و يتسارع بتتابع الرحلة، فيقوم الراوي الرحالة فيه عن " البحث عن افتتاح السرد وعقد ميثاق القراءة مع المتلقي"³⁶، فيصبح القارئ دائم الانتظار للأحداث التي ستلاحق و متشوقا لما سيحمله كشف الرحالة من أخبار و أحداث. وينتهي نص الرحلة بخطاب الختام الذي يحدّد بنية نهاية العمل بعودة الرحالة إلى موطنه وانتهائه من سفره الذي قاده إلى مكان ما.

يضاف إلى مستوى الحكى و السرد في الرحلة عنصر الوصف كملمح أدبيّ إضافي، إذ يبرع الرحالة في التصوير الدقيق لما يشاهده في رحلته، فيلامس به كل ما تراه عينه المجردة، و يحوّل كل معنى إلى شيء مرئي يقبل الملاحظة، فيصبح الوصف عاملاً أدبيا في جوهر الرحلة مادام هذا الوصف هو " وصف السفر من موضع إلى آخر، و ما تقع أبصار المسافرين من مشاهدات و ما يستطرفه من أخبار"³⁷، مما يجعل قارئه داخلاً في متن الرحلة وكأنه هو من رأى ما رآه الرحالة و استطرف ما أعجب به الرحالة نفسه.

إلى جانب ذلك كله، تظهر براعة أدبية أخرى تتعلق بثقافة الرحالة/ الكاتب، و الدالة على جانب مهم من الأدبية التي يميّز بها فضلاً عن كتابته للرحلة، متمثلة في مجمل ما يرويه هذا الرحالة من أشعار في متن نصوصه، سواء كانت أشعار من نظمه هو أم من منقول الشعر في أمهات الدواوين الشعرية عند العرب، هذا الشكل من توظيف الشعر يحمل انطباعات نفسية و فكرية استدعتها مختلف المواقف التي عاشها الرحالة أثناء و استرعت انتباهه فخصّها بتدعيمات شعرية، يضاف إلى ذلك تأكيد على سعة الكاتب في حفظ الشعر و معرفته و حسن توظيف للاستشهاد في المواقف المناسبة لذلك، فما كان من هؤلاء الرحالة إلا أنهم " عدوا تضمين الأشعار تأكيداً لكلامهم و حلية لأسلوبهم"³⁸، بل إن ذلك يطعم كتاباتهم بشيء من الجمال و الذوق الفني مشدوداً بصور "متعة وأخبار تلذ و تمتع، و تستعرض بصورة أدبية، تنسق مع النفس البشرية، فتشكّل رافداً ثراً من روافد الفنّ و المتعة الأدبية"³⁹، مع متعة في القراءة و التلقي حين يجد القارئ نفسه مشدوداً أمام تنوّع من الحكى و الوصف و الخيال و الصور البديعية إلى جانب الشّعـر. و بالتالي فإن نصّ الرحلة "نص مفتوح لا يمكنه أن يتسيّج في خانة محددة، تجنسه بصفة معينة، تضيق من تحرره و اتساعه و انتشاره، لهذا فإن القول بنصيتها هو انفتاح على دينامية الرحلة، و على خطاباتها المستندة على طرفي الذات و الآخر، و جسور التعبيرات المختلفة حولها"⁴⁰، فالرحلة تحقّق أدبيتها من حيث أنّها تقترب من الأدب بحسب تعبيراتها و أساليب توظيفها لمختلف أشكال التعبير الفني و تبتعد عنه من حيث ولوجها لعالم العجائبية في توظيف المحتوى الثقافي الإثنوغرافي كشقّ ثان من أدب الرحلة.

هذا الشقّ الثاني (الثقافي الإثنوغرافي) هو ما تكتنزه الكتابات الرحلية قديماً و حديثاً في مجمل ما تعلّق بالمروروث الثقافي الكبير الذي أنتجه فعل الرحلة والكتابة في سفر الرحالة إلى مختلف الأماكن والدول التي رُؤوا فيها من المظاهر و المشاهد و الخصوصيات ما يستوجب الدهشة و الإعجاب والاستغراب، بل و إنّ حرصهم الشديد - و نخصّ بذلك الرحالة المغاربة - على تدوين كل ما تلقفته ذات يمينهم جعلهم يهتمون أحياناً بالتفاصيل الصغيرة و الجزئيات التي تمثّل صميم هوية الشعوب، لقد "كان حرصهم شديداً على تدوين و تدقيق دقائق رحلاتهم إلى المشرق و مجرياتها، و تسجيل يومياتهم وملاحظاتهم التي لا تخلو في الغالب من إشارات دالة ببلاغة على جوانب من الحياة السياسية و الثقافية و الاجتماعية للبلد موضوع الزيارة، ولما حفّ بالطرق المؤدية إليه من بلاد و عباد"⁴¹، لذلك تنقل الرحلة الكثير من العناصر الثقافية و صفا و سرداً و تسجيلاً و نقلاً لأساليب العيش و الفنون و الحرف و الطقوس الدينية و العادات و التقاليد "سواء ما كانت عليه و ما طرأ عليها من تغيرات أو زوال أو تجديدات أو إصلاحات، وكانت هذه الأوصاف على جانب كبير من الأهمية في علم الآثار والفنون"⁴²، نقلاً حياً و حقيقياً من مختلف البلدان

التي زارها الرحّالة، حتى صارت بذلك مصدرا أساسيا و مهما من مصادر الموروث الثقافي لكلّ من يروم البحث في هذا المجال، ولعلها أيضا حافظت على هذا الشق من الحياة الذي اختفى و زال بمرور الزمان، فلم نكن لنراه أو نستمتع و ندهش برؤيته والتعرف عليه لولا إنجازات الرحلة على مستوى الكتابة، و يجدر هاهنا أن نؤكد على تداخل مجموعة من الجوانب في هذا الرصد، إذ نجد الرحالة ملقًا بمجموعة من الجوانب الفكرية و التقاليد و الجوانب الأثرية و العمرانية ما يؤكد " التلاحم بين الإثنوغرافيا والفلكلور سواء قصد الرحّالة ذلك أولم يقصدوا".⁴³، هذا الأمر يزيد من خصوصية هذا اللون من أدب الرحلة.

ولعل الجانب الإثنوغرافي في أدب الرحلة يظهر جليا في الطريقة التي اعتمدها كتابها في نقل مختلف المعلومات وآليات حصولهم عليها، شأنهم شأن الباحثين الإثنوغرافيين الذين بنوا عملهم على أسس منهجية علمية، "فالأخيرة يقومون بالعمل المكتبي قبل إجراء البحث الميداني وذلك بتحديد الهدف من الدراسة و اختيار المنطقة والاطلاع على ماكتب عنها ومعرفة لغتها...، ثم ينزلون إلى عملهم الميداني و يجمعون مادتهم عن طريق الملاحظة والمشاهدة والمشاركة ومقابلة الإخباريين و استجوابهم بعد أن يتزبوا بزّي المنطقة ويعايشوا أهلها ويحاولون الاندماج في المجتمع كأفراده، و من الملاحظة أن الرحالة اعتمدوا كلّ ذلك في جمع مادتهم ذات الصلة بالتراث"⁴⁴.

لقد صوّرت الرحلة الحياة الاجتماعية لشعوب البلدان التي زارها الرحالة في كل " أحوال المعيشة، وصورت المحطات الهامة في حياة الإنسان: الميلاد و الزواج والموت، وكل ما يرتبط بهذه المناسبات من مظاهر اجتماعية واحتفالات بالمناسبات السعيدة أو الحزينة، وما يرافقها من العادات و التقاليد و البدع التي قد تختلف من بلد إلى آخر"⁴⁵، تأكيداً على أن جهد الرحالة لم يقتصر على عمل واحد فقط، لقد كان بمثابة العين التي استطاعت أن تبصر كل شيء على مستوى حياة الشعوب في مستوياتها الفكرية و المادية و الروحية، فجاءت الرحلات " مصدرا هاما لوصف الثقافات الإنسانية "⁴⁶، لذا فإننا نجد الإثنوغرافيا في ثانيا كتابات الرحالة إن لم تكن الدراسة الإثنوغرافيا حسب حسين فهم هدفهم الأساسي، ومع أن الرحلة أي الانتقال من موطن الشخص إلى أقطار وبلدان بعيدة تشكّل متطلباً رئيساً للدراسة الحقلية الإثنوغرافية⁴⁷، فتكون الرحلة موضوع تجربة التعرف على ثقافة معينة، يضاف إليها الجانب الإثنوغرافي متمثلاً في وصف وتحليل و تفكيك هذه الثقافة بنقل أخبار الشعوب وتصوير وقائعهم اليومية في زمان و مكان معين، يتطلبان من الرحالة المكوث لمدة طويلة حتى يتمكن من فهم مختلف التغيرات والذنبات الثقافية، فيكون الرحالة/ الإثنوغرافي بصدد " الإطار العام لوسائل جمع المادة و التحقق منها، وفي أصول الاتصال المباشر مع الناس و المثابة في البحث و التفهم لوقائع حياتهم اليومية، و أساسيات منظوماتهم المعرفية بأنفسهم و بالغير، علاوة على عمق تجربة الرحلة و خبرتها، ومدى صقلها للنفس و الروح، وتأثيرها في الفكر والسلوك"⁴⁸، هنا تظهر قيمة الجانب الإثنوغرافيا في أدب الرحلة مقترنة بمختلف الآليات والسلوكات التي يجب على الرحالة الاقتداء بها.

و تظهر قيمة الرحلات و ماكتب فيها من حيث إنها " رصدت تنوع المعالم الحضارية في مختلف الجوانب الحياتية في البلدان التي قصدها الرحالة، وعكست صورة واضحة عن أحوال الشعوب و عاداتها و

تقاليدها" ⁴⁹، قد لا يتمكن من الوصول إليها إنسان عادي أو لا يطمع إطلاقاً في التعرف عليها لظروف كثيرة ترتبط بالحياة على وجه العموم، ثم إنها " كشفت عن الانتماء إلى ثقافة الذات والفهم لثقافة الآخر و الانفتاح عليه، مبرزة الترابط بين كل العناصر البشرية و الثقافية في البلدان التي زارها الرحالة" ⁵⁰، كل ذلك يحقق قراءة ذات طابع نفعي استكشافي و تعليمي لكل من يروم اهتماماً لأدب الرحلة، يضاف لها مستوى الأدبية وما يحقق من قيم فنية جمالية و أدبية، نحاول فيما تبقى من هذه الورقة البحثية أن نقف عنده من خلال اعتماد التحليل البنيوي و توظيفه للولوج إلى عالم الرحلة أدبياً وإثنوغرافياً، و بالتحديد في تقديم عنصر الطعام كمظهر ثقافي إثنوغرافي لا تخلو منه كتابات الرحالة العرب قديماً وحديثاً.

بنية السرد وحضور الطعام في أدب الرحلة:

يحدّد المنهج البنيوي الخطاب الأدبي ككيان مستقل على المحور التاريخي، واصفاً الأدب في ذاته انطلاقاً من مركباته اللغوية مستقلة عن كل أثر خارجي، فتزى أنّ كل نصّ " بنية مستقلة قائمة بنظامها اللغوي الذي يمكن إدراك علاقاته و ترابطاته وعناصره الأساسية، وكيفية تركيبها حيث تؤدي وظيفتها الجمالية، ومن هذا نجد أنّ النصّ الأدبي في البنيوية لا يرتبط بأيّ جانب خارجي لا بالمؤلف ولا بنفسه و لا بالمجتمع، و إنّما هو مرتبط بما سماه البنيويون أدبية الأدب" ⁵¹، تأكيداً على وجود مجموعة العناصر الممثلة لنظام واحد يسير وفقه العمل الأدبي.

وباعتبار الرحلة شكلاً أدبياً يحمل أبعاد الأدبية (كما تقدّم ذكره سابقاً)، فإنّ البنيوية تنظر إليها من منظور أدبي " في محاولة للوصول إلى تحديد للنظام أو البناء الكلي الذي يجعل النص موضوع الدراسة أدباً، وهو نظام يفترض الناقد البنيوي مقدّمًا أنّه موجود، وبعد ذلك يحاول تطبيق خصائص النظام الكلي العام على النصوص الفردية معطياً لنفسه حق التعامل بجرية مع بني النصّ الصغرى ووحداته" ⁵²، و لعل الوقوف على بني نص الرحلة كنصّ أدبيّ بعيداً عن ظروف نشأته يعطينا الكثير من السياقات السطحية أو العميقة التي يمكن أن نتعامل معها بنيوياً و يمكن أن نلج بها عالم الرحلة الإثنوغرافي المشكّل في أساليب الأدبية و صيغها.

إنّ الشبّكة الإثنوغرافية المشكّلة لبنية النص الرحلي تظهر بشكل كبير على مستوى الكتابة من بداية الحكاية الرحلية المنتظمة في متواليات سردية مترابطة زمانياً و منطقيّاً، تخضع الأحداث لمنطق الاختيارات و الإمكانيات المحتملة، حين يجعل السارد الرحالة الحدث حيّاً و حيويّاً في بني تواتره من مدخل الرحلة إلى متنها إلى غاية ختامها. و إذا أردنا أن نقف على المستوى المعجمي مرتبطاً بمستوى الدلالة في بنية الخطاب الرحلي فإننا نجد مجموعة من الحقول المتنوعة ذات الطابع الإثنوغرافي، و بخاصة احتفاء الرحالة بعنصر الطعام الذي لا يخلو نص رحلي من ذكره و الحديث عنه بإسهاب، أو حتى الإشارة إليه ولو بصورة عابرة. إن حديث الرحالة العرب عن الطعام كبنية مشكّلة لمضامين النص الرحلي سيعطينا بلا شك الكثير الإيضاعات عن الحياة و ثقافة المجتمع وطبيعة البشر في طقوس حياتهم اليومية و أساليب معيشتهم، باعتبار أن الطعام يمثل مركباً حضارياً لا يخلو منه حديث عن طبيعة الفكر الإنساني.

إن الحديث عن الطعام كبنية مكونة لنص الرحلة يحملنا إلى تحديد القواسم المشتركة بين جلّ الرحالة الذين أظهرها أن الناس عامة في مختلف البلاد يتفقون في كثير من الأطعمة و الأشربة و مختلف العادات

المرتبطة بطرق تحضيره و إعداده و تقديمه، مظهرة في نفس الوقت المستوى الاجتماعي والاقتصادي لتلك البلدان انطلاقاً من وصف مجالس موائدهم و مأكولاتهم قديماً و حديثاً. فعند القدماء يظهر في رحلات ابن بطوطة⁵³ معجم الطعام بارزاً يحدد أنواعه و أشكاله و ما يقدم معه، وحتى طرق تقديمه، من ذلك أنه رأى أن بعضهم " كان يفطر على ثريد في صفحة صغيرة عليه العدس مسقّى بالسمن و السكر، و يقدمون الثريد تبركاً بالنبي ﷺ"، وبعضهم الآخر فإن موائدهم " كانت مليئة بالدجاج المشوي و فراخ الحمام و الخبز المعجون بالسمن، و الكعك والحلوى و مختلف أنواع الفواكه"، وفي رحلته إلى مدينة منفوط إلى مصر رأى أنه " يأتي بالخبزة الحارة فيطرحها في القدر التي يطبخ السكر فيها ثم يخرج وقد امتلأت سكرًا فينصرف بها"، و في جزيرة سيلان يرى أن عادات أهلها في إكرام الضيف بالطعام أن " يطبخ لنا بعض اللحم، فيأتون به في قدورهم، ويقعدون على بعد منا، ويأتون بأوراق الموز فيجعلون عليها الأرز وهو طعامهم، ويصبون عليه الكوشان أو الإدام، ويذهبون فنأكل منه"، وما وصفه عندما وصل إلى إحدى مناطق تركيا أن " هؤلاء الأتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ، و إنما يصنعون طعاماً من شيء يشبه الآتالي أو العنب، يجعلون على النار الماء فإذا غلى صبوا عليه شيئاً من الآتالي أو العنب وإن كان عندهم لحم قطعوه قطعاً صغيرة و طبخوه، ثم يجعل لكل رجل نصيبه في صحيفة، ويصبون عليه اللبن الرائب و يشربونه و يشربون لبن الخل"، وما أدهشه في منطقة أوزبك أنه لما " جاء وقت الإفطار أحضروا لحوم الخيل وهي أكثر ما يأكلون من اللحوم، ثم لحوم الأغنام بعدها، و لحم الخيل يطبخ و يشرب باللبن"، و في خوارزم وصف ابن بطوطة ما قدم له من " موائد فيها الطعام من الدجاج المشوي و الكراكي (طائر يؤكل، و أفراخ الحمام وخبز معجون في السمن، وكعك وحلوى، ثم أتى بموائد أخرى فيها الفواكه من الرمان المحبب في أواني الذهب و الفضة ومعه ملاعق الذهب، و أيضاً أواني الزجاج العراقي ومعه ملاعق الخشب".

يظهر في هذا التقديم أن ابن بطوطة غلبه على أسلوبه بنية السرد و الوصف بالاعتماد على كل ما هو غريب ومدهش وربما مبالغ فيه في بعض الأحيان، فضلاً عن البعد الاجتماعي الثقافي الذي يمكن كشفه من خلال مجمل ما تمّ تقديمه في إطار عرضه اللغوي بأسلوب جزل و سهل يقارب الحقيقة في عرضه، و يحبب لدى قارئه، فلا يمكن في عرضه أن نفصل بين بنية الطعام و بنية السرد، "إن كل نص يحتوي ضمناً على نشاط داخلي يجعل من كل عنصر فيه عنصراً بانياً لغيره و مبنياً في الوقت ذاته، ولهذا فإنّ النظام الذي يقوم عليه بناء النص يسمح لكثير من العناصر بالتحول داخل النص من الموجب إلى السالب أو العكس"⁵⁴، فيمكن بذلك أن نلغي العوامل الخارجية و أسباب الكتابة وظروفها، و نقتصر على الاهتمام بجوهر النص الرحلي بنينا لتحقيق فكرة الأدبية مرة أخرى.

إلى جانب ابن بطوطة نجد من الرحالة القدامى لسان الدين بن الخطيب يعرض إثنوغرافية الطعام في رحلاته، يقدم بنيتها و صنوف الموائد و مختلف المأكولات التي تزيتها، من ذلك ما جاء في رحلته إلى منطقة هنتانة بالمغرب وإكرام أهل المغرب الشديد به، إذ يقول: " ولم يكذب يقرّ القرار ولا تنزع الخفاف حتى غمر من الطعام البحر وطما الموج، ووقع البهت، وأمل الطحو، ما بين قصاع الشيزي أفعمها الثرد و هيل بها السمن، وتراكبت عليها السمان الحملان الأعجاز... مهديّة كل مختلف الشكل لذيد الطعم، مهان فيه

عزيز التابل... إلى السمك الرضراض والدجاج فاضل أصناف الطيار، ثم تتلوها صحون نحاسية تشتمل على الطعام خاص من الطير و الكباب والقللق، ويتلو ذلك من أصناف الحلواء بين مستبتن للباب البر، ومعالج بالقلو و أطباق مدخر الفاكهة⁵⁵. فبنية اللغة التي عرضت شكل الطعام هنا حملت جانب الجمالية في ألوان البيان الموظفة مقرونة بألوان الطعام و تصنيفها وتقديمها، فكلما اللونين خادم للآخر وبين جمال اللغة و جمال الطعام يضيع القارئ في مجال من الإعجاب.

نفس الأمر في رحلات ابن جبير، ففي خضم حديثه عن رحلته إلى مكة المكرمة يزيّن لنا جميل طعامها ويربط بين بنية الطعام وبنية السرد الرحلي، فيقول: "ومن أغرب ما ألقيناه فاستمتعنا بأكله وأجرينا الحديث باستطابته ولا سيما لكوننا لم نعهده الرطب، وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر في شجر يحن ويؤكل، وهو في نهاية من الطيب واللذة، لا يسام التفكه به، بأنه عندهم عظيم، يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة، أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب، ثم بعد ذلك عند تناهي نضجه يسط على الأرض قدر ما يحف قليلا"⁵⁶، هو ذات الأمر يشترك فيه الرحالة في عرض إثنوغرافية الطعام كابن العربي في مشاهدته موائد الأكل بطور زيتا على مشارف القدس، وعبد اللطيف البغدادي الذي أفرد لغريب الطعام حيزا مهما في "الإفادة و الاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر"⁵⁷، و أبي الريحان البيروني في فصل "في المباح والمحظور من المطاعم و المشارب"⁵⁸.

ليس الأمر مقتصرًا على القدماء بل إنّ المحدثين نحو نحوهم في نقل إثنوغرافيا الطعام مركّزين على مختلف ما تعلق به من عادات و طبائع، إذ يشير عبد القادر المازني في رحلته إلى الشام إلى بعض عوائد الأكل عند الشاميين خاصة ما بدا له غريبا يخالف عاداته و ما ألفه، يقول في إحدى رحلاته التي سماها ب: "أكلة علائية": "... هل تعرف أن هذه أكلة علائية، قلت: ماذا تعني؟ قال: كل ما تراه مطبوخ بالزيت -حتى الحلوى- ولا لحم من أي نوع، قلت: أعوذ بالله"⁵⁹، فبنية هذا النصّ ميّزها العنوان المرتبط بالأكل، ثم متن الرحلة التي قضاها المازني و منها رحلته في سبيل اكتشاف للأكل، و غرائبية ما وجده من أكل بعض الشاميين المطبوخ كله بالزيت دون استخدام اللحم.

ويظهر لنا ما قدمه الرحالة الجزائري أبو القاسم سعد الله في رحلته إلى المغرب، مبرزا ثقافة كبيرة من خلال آداب الطعام و ألوانه عندهم و مدى حفاوتهم بالضيف و إكرامهم له، كل ذلك عبر بنية سردية يقدّم فيها الطعام بأسلوب بسيط في تركيب لغته، يتراوح بين الإخبار و الوصف و الحقل المعجمية الدالة على ثقافة الطعام في المغرب، فيبدأ بوصف مائدة من موائدهم وجدها "دسمة تبدأ بالبسطيلا المسكرة الملوّزة، و تتنى بالدجاج المحمر المتبل و تنقل إلى الكسكسي المصفر بالزعفران الحر والمدهون بأصيل الدهان، و تختتم بالفاكهة المنتقاة من خير ما تجود به حقول المغرب المعطاء"⁶⁰، منتقلا إلى آداب التعامل مع هذه الجلسة في الأكل الذي تستخدم فيه "الأصابع عن الشوك و الملاعق، وبالجلوس العربي عن الجلوس الأوربي، وبماء الإبريق عن ماء العين"⁶¹.

لقد استطاع هؤلاء الرحالة و غيرهم من المتقدمين أن يزودوا القراء و الباحثين على حد سواء بكثير من المعلومات حول أوجه الحياة المختلفة لثقافات المجتمعات التي وصلوا إليها، و كان الطعام مركّبا بارزا في البنية السطحية لكتابتهم، و يقود إلى بنية عميقة نفهم بها مختلف الوقائع النفسية والاجتماعية وحتى

الاقتصادية لهذه البلاد، إضافة إلى تزواج هذا المركب الإثنوغرافي بالمركب الأدبي متقاربين و متكاملين سردا و وصفا في بنية النص الرحلي، و المنظور البنيوي لذلك يقرّ بدراسة ما تعلق بالنص داخل النص، فرغم بروز شخصية الرحالة وذاتيه داخل النص الرحلي، لكن الأمر لا يهمّ إذا ما تمّ الربط فقط بين مكونات نصّه و لغته، إذ إن بيانات المؤلف ليست جوهر الدراسة النقدية للأدب عند البنيويين أو هي "نقطة الارتكاز الاستراتيجية الموجهة للعمل التحليلي النقدي، بل يجب أن تكون نقطة الارتكاز عندهم هي من النص ذاته"⁶²، فهو القادر على أن يمنحنا مساحة كبيرة من المعرفة الموثقة في نصوص الرحلة بالإضافة إلى رصد مختلف العناصر الجمالية المرتبطة بلغة و أسلوب الرحالة.

خاتمة:

إن الرحلة بوصفها خطابا أدبيا تتوفر على مجموعة من الوثائق المتداخلة، و تزخر بمادة إثنوغرافية غنية وواسعة تفيد في الاطلاع على معرفة الإنسان، لا تزال مصدرا هاما للباحثين في شتى ميادين العلوم الإنسانية، فهي ليست مجرد نصوص عادية تستحق القراءة لكنها تتميز بانفلاتها في الخيال معتمدة على جنس السرد الذي يحدد طبيعة هذا الشكل الأدبي من جهة و يمتد إلى فتح مجالات بعيدة المدى ذات البعد الأنثروبولوجي من جهة أخرى، محققة بذلك وجودا أدبيا لغويا إبداعيا ووجودا إنسانيا و معرفيا مفتوحا على مختلف الرؤى المنهجية التي تهدف إلى كشف مكوناتها و جمالياتها و امتيازات الاحتمالات التي قد يجدها باحث شغوف في أدب الرحلة.

قائمة المصادر و المراجع

- 1- إبراهيم محمود خليل، النقد الأدبي من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2003.
- 2- ابن بطوطة أبو عبد الله، رحلة ابن بطوطة، تقديم كرم البستان، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، 1960.
- 3- ابن جبير أبو الحسين محمد، رحلة ابن جبير، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1964.
- 4- أبو الريحان محمد البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مجلس دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1958.
- 5- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب و الرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- 6- أحمد أبو زيد، موقفنا من التراث، مقال مأخوذ من مجلة عالم الفكر، عدد سبتمبر 1983، الكويت.
- 7- أحمد عبد الرحيم نصر، التراث الشعبي في أدب الرحلات، مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، الدوحة، قطر.
- 8- أنجيل بطرس، الرحلات في الأدب الإنجليزي، مجلة الهلال، عدد 07، 1975، القاهرة، جمهورية مصر العربية.
- 9- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 1984.

- 10- حسني محمد حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ط2، 1983.
- 11- حسين محمد فهمي، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والثقافة و الآداب، يونيو 1989، الكويت.
- 12- حسين نصار، أدب الرحلة، مكتبة لبنان+الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1991.
- 13- حميد الحمداني، بنية الخطاب السردى، المركز العربى، بيروت، لبنان، ط3، 2000.
- 14- خليل شكري هياس، سيرة جبرا الذاتية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2001.
- 15- روبرت إسكارييت، سوسولوجيا الأدب، ت: آمال أنطوان عرموني، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط2، 1983.
- 16- سعيد بن سعيد العلوي، أوربا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، الدار البيضاء، المغرب 1995.
- 17- سعيد يقطين، السرد العربى مفاهيم و تحليلات، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2006.
- 18- سيد حامد التّساخ، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، دار غريب للنشر، القاهرة، مصر.
- 19- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربى، التجنيس-آليات الكتابة-خطاب المتخيل، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 2002.
- 20- صلاح الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، دار منشأة المعارف، الإسكندرية، جمهورية مصر العربية، ط2، 1999.
- 21- صلاح الشامي، الإسلام و الفكر الجغرافى، مطبعة الإسكندرية، جمهورية مصر العربية، 1979.
- 22- صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، دار الكتاب المصرى، دار الكتاب اللبنانى، (القاهرة-بيروت)، ط1، 2004.
- 23- صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ميريت للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2002.
- 24- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2009.
- 25- عبد الرحمان المودن، عبد الرحيم بن حادة، السفر في العالم العربى الإسلامى، سلسلة ندوات ومناظرات، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003.
- 26- عبد الفتاح كيليطو، المقامات، المقامات، السرد و الأنساق، الثقافة، ت: عبد الكبير الشراوى، دار طوبقال، المغرب، ط1، 1993.
- 27- عبد القادر علي باعيسى، في مناهج القراءة النقدية الحديثة، مركز عبادى للدراسات و التّشّ، صنعاء، اليمن، ط1، 2004.
- 28- عبد اللطيف العوفى، البحوث النوعية في الدراسات الإعلامية، مطابع التقنية للأوفست، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1425هـ.
- 29- عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية، المجلد الأوّل، تحقيق سعيد الفاضل سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2006.
- 30- لسان الدين بن الخطيب، خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، تحقيق مختار العبادى، دار السويدي للنشر و التوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2003.
- 31- مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط2، 1984.
- 32- محمد بن الحسن محمد البغدادى، الإفادة و الاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تقديم: سلامة موسى، مطبعة وادي النيل، القاهرة، مصر، ط1، 1286.
- 33- مدحت الجيار، أدب الرحلة رحلة الشام للمازني، دار النديم للصحافة و النشر، القاهرة، مصر، ط1، 1994.
- 34- ناصر عبد الرزاق الموائى، الرحلة في الأدب العربى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى، دار النشر للجامعات المصرية، جمهورية مصر العربية، ط1، 1995.
- 35- نبيل راغب، أدب الرحلات، مجلة الفيصل، الرياض، السعودية، ع88، يوليو 1984.
- 36- نوال عبد الرحمان الشوابكة، أدب الرحلة الأندلسية و المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجرى، دار المأمون للنشر، عمان، الأردن، ط1، 2008.
- 37- www.ar.wikipedia.org/wiki/ علم الإنسان التطبيقي. آخر تعديل للموقع: 2016/03/05.

Patton.M.Qualitative and research methods news.Bury park.CA.sage -38
publication.1989.page 67.

- 1 - جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص 316.
- 2- أبو الريحان محمد البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مجلس دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1958، ص01.
- 1 -
- 4 - صلاح الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، دار منشأة المعارف، الإسكندرية، جمهورية مصر العربية، ط2، 1999، ص02.
- 5 - ينظر: المرجع نفسه، ص07.
- 6 - حسين محمد فهميم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والثقافة و الآداب، يونيو 1989، الكويت، ص 15.
- 7 - عبد الرحمان المودن، عبد الرحيم بن حادة، السفر في العالم العربي الإسلامي، سلسلة ندوات ومناظرات، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003، ص11.
- 8 - عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ص 407.
- 4 - ينظر صلاح الشامي، الإسلام و الفكر الجغرافي، مطبعة الإسكندرية، جمهورية مصر العربية، 1979، ص95.
- 5 - مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص17.
- 6 - أنجيل بطرس، الرحلات في الأدب الإنجليزي، مجلة الهلال، عدد07، 1975، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ص 52.
- 1 - جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص 316.
- 13 - ناصر عبد الزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية، جمهورية مصر العربية، ط1، 1995، ص 41.
- 14 - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، التجنيس-آليات الكتابة-خطاب المتخيل، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 2002، ص 246.
- 15 - صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، (القاهرة-بيروت)، ط1، 2004، ص9.
- 16 - شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص 41.
- 17 - سعيد بن سعيد العلوي، أوربا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، الدار البيضاء، المغرب 1995، ص14.
- 18 - روبرت إسكاربيت، سوسيولوجيا الأدب، ت: آمال أنطوان عرموني، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص26.
- 19 - عبد اللطيف العوفي، البحوث النوعية في الدراسات الإعلامية، مطابع التقنية للأوفست، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1425هـ، ص 292.
- 1 - علم الإنسان التطبيقي www.ar.wikipedia.org/wiki/ آخر تعديل للموقع: 2016/03/05.
- 21 - حسين فهميم، أدب الرحلات، ص 44.
- 22 - Patton.M.Qualitative and research methods news.Bury park.CA.sage
publication.1989.page 67.
- 23 - حسين فهميم، أدب الرحلات، ص 144.
- 24 - ينظر: حسين فهميم، أدب الرحلات، ص 56، 57، 58.

- 25 - أحمد أبو زيد، موقفنا من التراث، مقال مأخوذ من مجلة عالم الفكر، عدد سبتمبر 1983، الكويت.
- 26 - ينظر: حسين فهمي، أدب الرحلات، ص 52.
- 27 - ينظر: حميد الحمداني، بنية الخطاب السردى، المركز العربى، بيروت، لبنان، ط3، 2000، ص 11.
- 28 - نبيل راغب، أدب الرحلات، مجلة الفيصل، الرياض، السعودية، ع88، يوليو 1984، ص 71.
- 29 - سيد حامد التّساخ، مشوار كتب الرحلة قديماً وحديثاً، دار غريب للنشر، القاهرة، مصر، ص 08.
- 30 - حسني مُحمّد حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص 8.
- 31 - نوال عبد الرحمان الشّوابكة، أدب الرحلة الأندلسية و المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر، عمان، الأردن، ط1، 2008، ص 244.
- 32 - عبد الفتاح كيليطو، المقامات، المقامات، السرد و الأنساق، الثقافة، ت: عبد الكبير الشرقاوي، دار طوبقال، المغرب، ط1، 1993، ص 15.
- 33 - المرجع نفسه، ص 127.
- 34 - سعيد يقطين، السرد العربى مفاهيم و تحليلات، ص 200.
- 35 - خليل شكري هياس، سيرة جبرا الذاتية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2001، ص 56.
- 36 - شعيب خليفي، الرحلة في الأدب العربى، ص 193.
- 37 - حسين نصار، أدب الرحلة، مكتبة لبنان+الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1991، ص 132.
- 38 - المرجع نفسه، ص 127.
- 39 - نوال عبد الرحمان الشّوابكة، أدب الرحلة الأندلسية و المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ص 53.
- 40 - ينظر: عبد النبي ذاكر، المحتمل في الرحلة العربية إلى أوروبا و أمريكا الشمالية و الاتحاد السوفياتي، مذكرة معدة لنيل شهادة دكتوراة دولة، كلية الآداب أغادير، المغرب، 1998.
- 41 - عبد الله بن مُحمّد العياشي، الرحلة العياشية، المجلد الأول، تحقيق سعيد الفاضل سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2006، ص 12.
- 42 - نوال عبد الرحمان الشّوابكة، أدب الرحلة الأندلسية و المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ص 159.
- 43 - حسين فهمي، أدب الرحلات، ص 87.
- 44 - أحمد عبد الرحيم نصر، التراث الشعبي في أدب الرحلات، مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، الدوحة، قطر، ص 18.
- 45 - نوال عبد الرحمان الشّوابكة، أدب الرحلة الأندلسية و المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ص 159.
- 46 - المرجع نفسه، ص 159.
- 47 - ينظر: حسين فهمي، أدب الرحلات، ص 62.
- 48 - حسين فهمي، أدب الرحلات، ص 66، 67.
- 49 - نوال عبد الرحمان الشّوابكة، أدب الرحلة الأندلسية و المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ص 317.
- 50 - المرجع نفسه، ص 317.
- 51 - عبد القادر علي باعيسى، في مناهج القراءة النقدية الحديثة، مركز عبادي للدراسات و التّشّرع، صنعاء، اليمن، ط1، 2004، ص 41.
- 52 - عبد العزيز حمودة، المرايا المحدّبة، من البنيوية إلى التفكيك، عالم المعرفة، العدد 232، الكويت، 1998، ص 159.
- 53 - ينظر: ابن بطوطة أبو عبد الله، رحلة ابن بطوطة، تقديم كرم البستان، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، 1960.
- 54 - إبراهيم محمود خليل، النقد الأدبي من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2003، ص 98.
- 55 - لسان الدين بن الخطيب، خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، تحقيق مختار العبادي، دار السويدي للنشر و التوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2003، ص 117.

- 56 - ابن جبير أبو الحسين مُجَّد، رحلة ابن جبير، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1964، ص100.
- 57 - مُجَّد بن الحسن مُجَّد البغدادي، الإفادة و الاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر، تقديم: سلامة موسى، مطبعة وادي النيل، القاهرة، مصر، ط1، 1286، ص 09.
- 58 - أبو الريحان مُجَّد البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، ص 116، 117، 118.
- 59 - مدحت الجيار، أدب الرحلة رحلة الشام للمازني، دار النديم للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1994، ص 117.
- 60 - أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب و الرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص223.
- 61 - المرجع نفسه، ص 225.
- 62 - صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ميريت للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2002، ص98.